

قال أبو محمد عفا الله عنه أفضل ما أبتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أهله، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وبه نستعين ولا حملنا ما لا طاقة لنا به، وقيض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه، وسوء اختيارنا، وقلة تمييزنا وفساد أهوائنا؛ فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني، واستزدته فيك، وغَوَلَ الطريق. ووكيد المودات، وحق النشأة ومحبة الصبا وكانت مودته الله تعالى. ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون، وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك، ثم كشفت إلى بإقبالك غرضك، وسرك وجهك، يحدوك الود الصحيح الذي أنا لك على أضعافه، لا أبتغي جزاء غير مقابلته بمثله. وفي ذلك أقول مخاطباً لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر – رحمه الله – في كلمة لي طويلة، طوق الحمامة في الألفة والألفاء أودك وُدّاً لَيْسَ فِيهِ غَضَاضَةٌ وَأَمْحَضُكَ النَّصْحَ الصَّرِيحَ وَفِي الْحَشَى فَلَوْ كَانَ فِي رُوحِي هَوَاكَ اقْتَلَعْتُهُ وَمَا لِي غَيْرُ الْوُدِّ مِنْكَ إِرَادَةً إِذَا حَزَنَتْهُ فَأَلْأَرْضُ جَمْعَاءُ وَالْوَرَى وَبَعْضُ مَوَدَّاتِ الرِّجَالِ سَرَابٌ لِيُذِكَ نَفْسُ ظَاهِرٍ وَكِتَابٌ وَمُزَقٌّ بِالْكَفِّينِ عَنْهُ إِهَابٌ وَلَا فِي سِوَاهُ لِي إِلَيْكَ خِطَابُ هَبَاءٍ وَسُكَّانُ الْبِلَادِ ذُبَابٌ وَمَا يَقَعُ فِيهِ وَلَهُ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ لَا مَتَزِيداً وَلَا مَفْنِئاً، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حظي وسعة باعي فيما أذكره فبدرت إلى مرغوبك. فهذا من الفقر، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به ربح المنقلب وحسن المآب غداً، ومن أقوال الصالحين من السلف المرضي: من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقوى. فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد. وحدثني به الثقات من أهل زمانه، فاعتقر لي الكناية عن الأسماء؛ فهي إما عورة لا تستجيز كشفها وإما نحاف في ذلك صديقاً ودوداً، ورجلاً جليلاً. وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في، تسميته، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره، إما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبیین